خصوصيات وطبائع شعوب الشمال الأفريقي عبر التاريخ من وجهة نظر مؤرّخي الفترة الاستعمارية اسطيفان اقزال نموذجا (1)

ترجمة و تقديم الدكتور محمد العربي عقون

جامعة منتوري -قسنطينة -

عندما طلب منّي الأستاذ المحترم الدكتور عبد الكريم بوصفصاف الإسهام بترجمة موضوع مهمّ لنشره في هذا العدد من مجلّة "الحوارالفكري" ، وعملا على تلاقح الأفكار وعبور الرؤى من ضفة إلى أخرى ، لم أتردّد في اختيار هذا الموضوع الذي ترك في ذهني أثرا لا مّحى وأنا أطالعه لأوّل مرّة منذ سنوات ، وكان الانطباع الأول الذي علق بذهني ساعتئذ هو ضرورة إطّلاع من يعدّون أنفسهم للعملَ السياسي على مثل هذه الدراسات لأنّ حقلِ التطبيق بالنسبة لعلم التاريخ هو السياسة ، ولذلك كان التاريخ يدرَّس للأمراء والحكّام ، لأنّهم سيتعلمون من تجارب التاريخ وعبَره القاسية وسيستنيرون برؤاه ومقارباته ، وهم يعدّون قراراهم ويرسمون سياساهم وبنضج كبير .

الموضوع طريف بقدر ما فيه من عبَر استخلصها عن الشعب الأفريقي (البربري) مؤرّخ من وزن ومقام اسطيفان اقزال Stéphane GSELL الذي لا يمكن أن نذكره مهما اختلفنا معه في بعض المسائل إلاّ باحترام(*)، فقبْله لا يمكن أن نقول بأنّ هناك نصّ تاريخي مدوَّن وشامل لأفريقيا الشمالية القديمة ، لقد رسم معالم هذا الميدان المعرفي الهامّ في أعمال خالدة ، ومع أنّ البعض قد تدفعه المكابرة الساذجة فيعترض ، وهو أمر غريب على بعض مواقفه وتأويلاته ...، وكأنّه يريد منه أن يكون أفريقيّاً ينافح عنّا نيابة عنا ، والأحرى بهذا البعض أن يدرك أنّ أيّ مؤرّخ مهما كان موضوعيا لا يمكن أن يتحرّر نهائيا من حسّه الوطني .

كتب و اسطيفان اقزال في عزّ ازدهار الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية وكلّ من كان في مقامه وفي الظرف الذي عاشه لا يمكن إلاّ أن ينتشي بذلك المجد الذي تصنعه أمّته يوميًّا ، ولذلك لن نتفاجأ بالأحكام التي سنجدها في نصّه مع أنّ بعضها على قسوته في غاية الأهمّية ، وإذا كان لنا أن نعتبر بهؤلاء فلنخلص في عملنا لوطننا كما أخلصوا لأوطانهم وشملوا بالعزّة

والكرامة مواطنيهم ، لا كما نفعل ، لأنّ دأب الكثير منّا هو أن يحسن القول ويسيء الفعل .

اسطيفان اقزال (1854 - 1932) من عائلة إنجيلية (بروتستانتية) ، من أصول ألزاسية أقامت في سويسرا على امتداد أجيال ، ويجعله نسبه من جهة أمّه ذا قرابة بباستور الطبيب المشهور ، أمّا والده فكان رسّاما ، ولذلك نشأ في وسط فنّي مكّنه من طفولة سعيدة وأصدقاء موهوبين ، وهو خرّيج دار المعلّمين (Ecole normale) نال الرتبة الأولى في التبريز ، فأهّلته هذه الدرجة وكذا شغفه بدراسة التاريخ القديم إلى نيل العضوية في المدرسة الفرنسية بروما حيث أمضى أربع سنوات (1886-1890) توّج بشهادة الدكتوراه الدولة عن أطروحة حول دوميتيان (Domitien) كانت محل تقدير من لجنة المناقشة التي لم تمانع في منْحه موافقة كانت الأولى من نوعها لمن هم في سنّه ، للقيام بحفريات أثرية في فولتشي (Vulci) وهو موقع أثري اتروسكي، ونُشرت تقاريره الأثرية سنة 1891 ، وكانت محلّ اعتبار من قبل المتخصّصين ، الذين اكتشفوا في اقزال الباحث الشابّ الذي يرنو إلى آفاق بعيدة وتوسّموا فيه قدرات واعدة فشجّعوه.

في نوفمبر 1890 كان قد صدر القرار الوزاري الذي تعيّن بموجبه اسطيفان اقزال مكلّفا بالمحاضرة في الآثار بمدرسة الآداب بالجزائر (العاصمة) ، وفي 1894 ترقّى إلى رتبة أستاذ مثبّت بنفس المدرسة في كرسي الأثريات الأفريقية (Antiquités africaines) وهو المنصب العلمي الذي احتفظ به عند تحويل المدرسة إلى كلّية ، وفي 1900 عيّن في منصب مفتّش الآثار بالجزائر ، ومنذ 1902 أصبح مديرا لمتحف الآثار الجزائرية والفنّ الإسلامي ، وهي مناصب لم يكن يتوقّع أن تسنَد إليه ، ومنذئذ أخذ على عاتقه إعادة بناء الماضي البعيد لأفريقيا الشمالية ، وأبرز أعماله في هذا المجال تاريخ أفريقيا الشمالية القديم (ثمانية أجزاء) ومعالم الجزائر القديمة في جزأين والأطلس الأثري للجزائر ، وكتاب عن المدن النوميدية الثلاث : توبورسيكو ومادوروش وعنونة ومدوّنة النقوش الأثرية اللاتينية بالجزائر في أربعة أجزاء ، ومئات من الأعمال الأخرى ما بين تقارير أثرية ودراسات تاريخية نُشرت كلّها في دوريات متخصّصة[1] ، وفي هذا النصّ الذي لم نشأ التعليق عليه كثيرا أصدر اسطيفان اقزال أحكاما جريئة ، نترك للقارئ التمعّن فيها فقد دوّنها في العشرينات من القرن العشرين ، فهل تغيّرنا أم أنّ ما حدث بعد الاستقلال يثبت في بعض منه حصافة الأحكام التي تملأ هذا النصّ وبُعْد نظر صاحبها ، الأمر متروك للقارئ !.

النصّ :

إذا كان متاحا لنا أن نحدّد سمات وخصائص إطار جغرافي ما ، فإنّ من العسير تحديد سمات وطبائع الشعب الذي تكوّن في ذلك الإطار الجغرافي ، وكذا تحديد الاستعدادات التي يكون قد اكتسبها من تفاعله مع ذلك الإطار على امتداد تاريخه ، وفي ما يتعلّق بالشمال الأفريقي على الخصوص حيث الطبيعة متنوّعة كثيرا في المناخ والتربة ... والكثير من جهاته ظلّ طيلة قرون دون علاقات مباشرة في ما بينها ، كما أنّ التباين بين الأرياف والمدن أعمق من أيّ تباين في بلاد أخرى من العالم ، قد يبدو لنا أنّ من العبث البحث في أيّ النقاط يتشابه الأشخاص فكريا وأدبيا لأنّ من

بينهم عددا كبيرا من الذين يحملون ملامح خصائص مشتركة أدهشت المتابعين لتطوّر المجتمع البربري وطبعا لا ينبغي تناسي أنّ للعموميات في هذا المجال استثناءات فردية كثيرة يمكن أن تفسَّر في جزء منها بالتأثيرات الأجنبية .

لقد كان من العادي لدى القدامى أن يصدروا أحكاما قاسية على الأهالي الأفريقيين [2] ، فهم بالنسبة لهؤلاء متوحّشون بما تحمله الكلمة من معنى ، وقد ظلّت تسمية بارباري (Barbari) علماً على عقبهم إلى الآن فالبربري (Berbère) خشن ، فظّ ، شرس وعنيف ، وهذه هي النعوت التي وصفهم بها الإغريق والرومان ، وهي نفس النعوت التي لا يزال مسلمو الشرق يصفونهم بها ، كما يؤخَذ عليهم شهوانيتهم وفظاظتهم الغريزية في النهب والسلب ، والازدراء بالحقيقة وبالوعود والاتصاف بالنفاق وبالخيانة والدناءة في مواجهة القوي ، والتسرّع في الخيانة إذا كان ذلك لا يكلّفهم مخاطر كبيرة ، والطيش والتقلّب وتُوجَّه إليهم تهمة الشغب والكسل في الوقت نفسه.

يُعترَف للبربر – مع هذا كلّه – بخصال حميدة عديدة مثل الرصانة والاعتدال ، الصبر وتحمُّل المشاقّ والمعاناة ، والشجاعة ، وفي تاريخهم الطويل ما يشهد على خطأ الأوصاف والنعوت التي وصمهم بها القدامى من إغريق ورومان وشرقيين أيضاً ، مثل حبّ الكسب والادّخار والكدّ في كسب معاشهم الذي يمكن أن يجعلهم أكثر جدوى ، وإذا كانت الأيام قد زلّت بهم في بعض الإسفاف والدناءة ، فإنّ تمسّكهم بالكرامة والشرف فوق كلّ اعتبار ، ومن النادر جدّا أن ينقلبوا خلال الحرب على قادتهم ولو كان أولئك القادة من الأجانب ، كما أنّه لا يمكن إطلاقا أن يتعرّض ضيفهم أو نزيل بينهم إلى ما يسيء إليه أو يخدش شرفه [3] وتُبنى العائلة عندهم على الزواج وفيها يتمّ القيام بواجبات إنجاب الأطفال وتربيتهم ، وهم ينشئون أبناءهم على التضامن ووشائج القرابة بالدم أو بالمصاهَرة ، وينذرون أنفسهم إلى درجة التضحية لحماية أقاربهم والمرتبطين بهم ، وليسوا عاجزين عن التقدّم لأنّهم عندما يريدون ذلك يقلّدون وينقلونّ بمهارة ، لهم ذاكرة وموهبة إتقان اللغات ، غير أنّ الذي عجزوا فيه هو أن يطوّروا أنفسهم بأنفسهم إنّهم يفتقرون إلى الأفق الواسع والثبات الذي يضمن الوصول إلى إنجاح الجهود.

يجعلهم طبعهم الحادّ في حالة حمّية عصبية ، وحتّى العظماء منهم يستسلمون لحماقات حقيقية بسبب الكبرياء ، الحنق ، الحقد وحتّى البذخ ، ولكن هذه "الأزمات" لا تدوم طويلا حتّى يعْقُبها انفراج عصبي أو بالأحرى قفزة فجائية توجّه الانفعال نحو اتجاه معاكس تماما ، فهل لمناخ أفريقيا دخْل في هذا الطيش وهذا التقلّب في المزاج والسلوك؟ .

لا ينعكس الوعي عند البربري على الإدراك ، وفي كثير من الأحيان يتوقّف عن النموّ مع بلوغ سنّ الرشد تقريبا ، أي ببلوغ الطاقة الجنسية مداها وهو في المعتاد يفتقر إلى التمييز والخيال ويوصَف بالسذاجة ويحتاج إلى الوضوح والعمق والدقّة في الأفكار ، ويعجز عن التقيُّد بمنهج ولا يهتمّ بالبحث في العلل للارتقاء إلى فهم العموميات وتصوّر المجرّدات وهي العيوب التي تفسّر لنا لماذا لم يبدع البربري في مجالات الفكر والعلوم والشعر والفنون والدين بـ "لغته" ، إذ تعْوِزه الأصالة ، إنّه يستطيع التقليد ولكن

ذلك التقليد يستعبده ، لأنّه لا يعرف كيف يحوّل النموذج النمط إلى إبداع يخصّه هو ورغم ثراء لغته بالمفردات إلاّ أنّها لا تستجيب إلا لحاجيات مادّية فظلّت أداة ناقصة [4].

اعتبر كثير من البربر أنّ حالة التدنّي "الفكري" هذه أمرا واقعا ومقبولا ، وكأنّه يرضى من الفكر بالقليل لأنّه يقدّر أنّ الرفاهية هي في رغد العيش لا غير ، وذلك حال سوق البضاعة الرديئة ، فالبربر عند قيامهم بهجوم سريع ويحالفهم الحظّ وينالون منه غنائم يكرّسون ذلك للمتعة دون تردّد ، ثمّ يستسلمون للبؤس الذي يحتمَل — في بلاد الشمس — أكثر من جهات أخرى ، كما يستسلمون للكسل الذي يستهلك قوّتهم ويعفيهم من الحاجة إلى الغذاء الوفير ، فليس لهم طموح في العيش الأفضل أكثر ممّا ألفه آباؤهم ولا يضاهيهم شعب آخر في تحمّل ثقل الروتين (رتابة الحياة) ،هذا الروتين الذي يعترض سبيل تطوّرهم سلوكيا عبر القرون إلى يومنا هذا ولا نزال نلاحظ سيلا من التقاليد والدلائل على تعلق البربر الشديد بالماضي [5] : الوشم الذي يطبع أجسادهم حلق الشعر ، نمط بناء المساكن بالحجارة ، اختيار مكان بناء القرى،بساطة الأثاث الذي تعوّدوا عليه أواني فخارية لم تتغيّر (في مادّتها وشكلها) منذ آلاف السنين ، الافتقار إلى التماثل في التزيين بالأشكال الهندسية ،أساليب بدائية في الزراعة وتربية الحيوان والاحتفاظ بطقوس جنائزية (قديمة) بإصرار ... ، وهناك ظواهر أخرى وقع تجاوزها ونسيانها في كل بلاد البحر المتوسّط ولكنّها لا تزال عند البربر ، مثل : أعمال السحر ، وما يصاحبها من انفعالات حادّة ، الاعتقاد في الجنّ ، استمرار أداء الطقوس في نفس الأماكن، تدنّي مكانة المرأة استمرار تعدّد الزوجات، نظام أبوي يضمن التكافل والمسؤولية الجماعية ، نظام جمهوري في القرى والقبائل ، استمرار جماعات المصالح التي يُطْلَق عليها اسم الصفّ ثمّ أخيرا ثبات مختلف لهجات (اللغة البربرية) التي رغم أنّها لا تُكتَب إلاّ أنّها احتفظت ببنيتها سليمة ، ولا تستعير من خارجها عند الحاجة إلاّ المفردات

تحمل الحضارة البربرية — كما هي وكما نراها في الأرياف ومنذ بداية التاريخ — بصمات عديدة طبعا ولكن أغلبها تعود إلى عصور موغلة في القدم وممتدّة على عشرات القرون ، وإذا كان لهذا الشعَب القدرة على الاندماج فإنّه ينفر من التبنّي النهائي للتجديد الذي يتلقّاه ، لأنّ التجديد الوارد من هنا وهناك هو تماما مثل الطلاء اللامع الذي يغطّي عمقا قديما ، لا يدخله ولا يغيّره ، وهذا الطلاء في كثير من الأحيان يكون هو الذي يمّحي بسرعة ، و(لعلّ) أحد الحواجز الرئيسية في وجه تقدّم (المجتمع البربري) هو الوضع الذي توجد عليه المرأة التي تعيش في حياتها مفصولة عن عالم الرجل ، مع أن العبء الأكبر يقع على عاتقها فهي التي تقوم بتربية الأطفال (ولا يكاد الأب يهتمّ بذلك)، وهي التي تبثّ فيهم تقاليد الحياة المألوفة إلاّ أنّها تظل تحت وطأة الطغيان طيلة حياتها.

إن التقدّم الذي يرفضه البربر بحماس وانفعال، ينبغي أن يقدَّم إليهم ، وأن يفرَض عليهم فرضا ، لقد كان ما يشبه ذلك إزاء المدرسة الإغريقية ، أمّا قرطاج فقد خصّصت هذا المجال لخدمة مصالحها لا غير ، ولم يكن لها أدنى اهتمام بأن تلعب دور المعلّم ، ومنه

نستخلص أنّ الأهالي كانوا في تخلّف كبير عندما دخلوا التاريخ المتوسّطي خلال الحروب البونية .

يحتاج هؤلاء البربر — للخروج من التوحّش — إلى تعليم صارم ومكثّف ، وهو التعليم الذي "برهنوا" على عدم الرغبة فيه، وينظرن بغباوة إلى الامتياز الذي يجنونه منه أكثر من النظر في قيمته لذاته[6] تجعلهم عصبيتهم الحادّة فوضويين ومغرورين، فيهم كبرياء ونفور وغيرة ، وهم سريعو الشكّ والكراهية ، يبالغون في الإساءة إذا أحسّوا بأنّهم ضحايا ، ويبحثون عن الانتقام بشاعة ، ومن هنا فإنّ الشجار بينهم دائم فوران لا حدّ له على من يستفزّهم ، يعميهم الانفعال ويحول دون فهمهم لضرورة الخضوع للمصلحة العامّة ، ولذلك تسيطر عليهم المنافع الخصوصية ، ولا يتّسع أفقهم للإحاطة بما وراءها يحبّون وطنهم وعندما يكونون بعيدين عنه يشدّهم الحنين إليه ،ولكن مفهوم الوطن عندهم فضفاض ، ولذلك لا يتحوّل عندهم إلى عاطفة عميقة وعقلانية وعامل إقامة وحدة وطنية حقيقية ، ولا يكاد مجال مخالطتهم يتجاوز مجتمعهم الصغير : العائلة الضيّقة ، العائلة الأبوية والقرية أيضا ونادرا ما يدوم الوفاق بين كلّ هؤلاء ، أمّا المجموعات الأخرى الأوسع فهي من الزمر أو الاتحادات النذلة زمر يكون الانخراط فيها أو الخروج عنها بناءً على منافع شخصية ولذلك سرعان ما تنحلّ بمجرّد زوال السبب الذي أوجدها ، وفي حال الدولة فإنّهم يتحمّلونها أكثر من كونهم يتقبّلونها ، ويخضع البربر في كثير من الأحيان لسلطة قائد أعلى يساعدونه للقيام بغارات سريعة يستفيدون منها ، ولكن بمجرّد ذهاب الرجل يتعرّض عمله إلى الدمار بسبب غريزة التمرّد وشقّ عصا الطاعة التي جُبلوا عليها ولعجزهم عن إقامة تضامن سياسي (مدني) ظهر بينهم التضامن الديني الذي يستند على الإسلام إلاّ أنّه تضامن هشّ تشتّته النحل والمذاهب ومع ذلك فإنّه أداة نزعة استقلالية لا تقهَر على الدوام . لم تعرف بلاد البربر القديمة وحدة دينية وحتّى الوحدة اللغوية شقّتها لهجات زادتها العزلة اختلافا إلى الحدّ الذي يجعل التفاهم بها صعبا من إقليم إلى آخر ، وإذا كان الانقسام السياسي عند الإغريق يعزى إلى العوامل الجغرافية فإنّ ذلك لم يمنعهم من تكوين أمّة بفضل وحدة الكهنوت ؛ وسطاء الآلهة ، الألعاب العمومية اللغة والآداب والفنون وكذا بفضل إحساسهم العميق بالتفوّق على الشعوب الأخرى . (التي اعتبروها) متوحّشة ، أمّا في أفريقيا فإنّ البلَد الذي

وحّدته الجغرافيا لم يجد الوحدة في أخوّة الرجال ، وإذا كان ذلك قد حال دون تكوين وطنية واسعة فإنّه حال أيضا دون بناء دولة دائمة ، وقد أشرنا إلى صعوبة مهمّة الفاتحين في هذه البلاد ، وعلى الأخصّ صَعوبة الوصول إلى الأرياف ، كما قال بيجو : " في لحظة يخيَّل إليك أنّك سيّد في كلّ مكان ، إلاّ أنّك ستفاجأ بأنّك لست سيّدا على أيّ مكان بالمرّة " ، فبلاد البربر الشاسعة هذه تفتقر إلى مركز يمكن أن تدار منه وأن تفرَض عليها السيطرة من خلاله ، والجزائر مثلا وهي بلاد الوسيطة كما سمّاها العرب لا تشكّل رابطة بينها وبين القطرين المجاورين لها غربا وشرقا، وفي كثير من الأحيان قام القطران بالعدوان عليها ، ولكن لم تخضع لأيّ منهما أبدا ، وما عدا الموحّدين الذين كانت دولتهم أهلية (بربرية) فإنّ أيّ دولة مهما كان منطلقها لم تتمكّن من توحيد بلاد البربر وينبغي على الدول

التي تتقاسم السيطرة علي أفريقيا الشمالية إذا أرادت أن يكون لها حظ البقاء أن تقيم نظما متينة ، وهذه مهمّة في غاية الصعوبة لأن عيوب البربر السلوكية وفوضويتهم تحول دون ذلك أو تجعله عسيرا .

لقد نجح ماسينيسا في إقامة مملكة واسعة وعمل على تطوير النوميد ، مستوحيا بعض الجوانب من سيفاكس ، مدعّما سلطته بالسيادة والنفوذ كالملوك الهلينيين ، فقد كان حاكما سيّدا بأتمّ معنى الكلمة وكان له الذوق والشغف بالحضارة ، ومن بعده حاول العديد من أبنائه وأحفاده التحرّر من غلظة الأخلاق النوميدية ، فقرّبوا المثقفين وأنشؤوا أبناءهم تنشئة حضارية متينة ، لأنه في آخر عهد قرطاج أصبحت الهلينية مهيمنة في قرطاج ذاتها ، وقد فضّل الملوك النوميد والشعب النوميدي المزج بين الثقافتين البونية والإغريقية .

لم تذهب جهود ماسينيسا سدى ، وكذلك قرطاج في الإقليم الذي سيصبح سنة 146 ق.م.مقاطعة رومانية ، لقد قام ماسينيسا وخلفاؤه من بعده بإعداد نوميديا ، خاصّة القسم الشرقي منها لأن تكون متحضّرة مزدهرة ، وهو الازدهار الذي سيتحقق في ظلّ السلم الروماني (Pax romana) ونستطيع القول بأنّ نوميديا حققت في القرن الثاني إلى منتصف القرن الأول ق.م. تحت حكم ملوكها تقدّما كبيرا لم تحققه المقاطعة الرومانية في عهد حكومة الجمهورية الرومانية .

في الدولة الكبرى التي أقامها ماسينيسا ، لم يؤسّس هذا العاهل هيكلا إداريا ، وكان حكمه الفردي يفتقر إلى مؤسّسات وإلى قواعد تضبط بوضوح انتقال السلطة الذي يتطلّب من الحاكم كفاءات استثنائية وهيبة ونفوذ قوي ، وإلاّ استيقظت الفوضى وبالتالي خراب التلاحم المصطنع والهشّ ويبدو أنّ خلفاء ماسينيسا من بعده لم يهتمّوا بإكمال ما كان قد شرع فيه فليس من المنطقي أن يتحمّل شخص واحد كلّ أعباء الدولة ، وكان الرومان قد منعوه (ماسينيسا) من وضع يده على قرطاج والمدن البونية الأخرى على السحل الأفريقي ، وكان ذلك لو تمّ سيسهّل الاحتكاك الحضاري ولذلك لم تنفذ الحضارة البونية إلى كلّ البلاد (البربرية) ولم تتجاوز النخبةويدلّ الضريحان الملكيان في المدغاسن وتيبازا على نموّ حضارة أهلية متميّزة .

تمكّن ماسينيسا فيما يتعلّق بجماهير الشعب ، من تنمية عدد الفلاّحين ، ولكن ذلك كان في شرقي المملكة ، ويبدو أنّ انتشار اللغة والتقاليد البونية كان محدودا في الأرياف حيث ظلّ المستقرّون والرحّل الذين يسكنون المناطق الداخلية داخل دائرة تقاليدهم القديمة وخاصّة منهم الجبليون ، والملاحظ في التاريخ الاجتماعي لبلاد البربر هو وجود هوّة عميقة تفصل بين حضارة المدينة – وهي متشبّعة بالتأثير الأجنبي – والوحشية الريفية ، وليس سهلا على أشخاص يختلفون في نمط الحياة أن يحصل بينهم وفاق ، فهل تمكّنت الدول الأهلية من إنهاء ذلك أو عل الأقلّ الحدّ من تلك الهوّة ، لم يكن ذلك أكيدا ، فقد كانت هناك على الدوام قوى معادية كثيرة اعترضت الأعمال التي يمكن أن تنهي ذلك الوضع خاصّة وأنّه يتطلّب منهجية وكثيرا من الوقت ، وعلى العموم لم يكن متاحا للأفريقيين التحكّم بأنفسهم في مصيرهم فقد حالت نظرتهم الضيّقة ورفضهم الإذعان لنظام مركزي

مشترك ... دون لعب دور تاريخي كبير ، ونادرا ما امتدّ سلطانهم خارج حدودهم وهم جند ممتازون تمكّنوا من فتح إسبانيا في القرن الثامن ومصر في القرن العاشر ولكنّهم ليسوا هم الذين استفادوا من ذلك وإذا كان هناك قادة بربر (كالمرابطين والموحّدين) فإنّهم لم يستمرّوا إلاّ فترة قصيرة في شبه الجزيرة الإيبرية ، وحتّى في بلادهم لم يكونوا مستقلّين ، وفي أغلب فترات التاريخ ينبغي أن يأتي الأجانب لفرض النظام والسلم على هذا الشعب ، ولتحقيق ذلك لا بدّ من جهود كبيرة للانتصار على الحواجز العديدة التي يضعها الشعب والأرض .

إذا تمّ التصميم على إنجاح السيطرة النهائية على هذه البلاد ينبغي إخضاعها كلّها ، المناطق المفيدة وغير المفيدة ، لأنّ المناطق الأفقر هي عل الدوام منطلق التمرّد ، وفيها استعداد دائم لإثارة الاضطرابات ، وهو أمر يتطلّب الكثير من الجهود لمواجهة مقاومات حادّة وطويلة ، ومع ذلك لم يعرف التاريخ بأنّ البربر كوّنوا جبهة واحدة في مواجهة الأجانب ، فالغيرة والأحقاد دائما توفر للأجانب حلفاء من بين البربر ضدّ البربر .

ينبغي على الأمّة الفاتحة ، إذا أرادت أن تبقي سيطرتها على بلاد البربر أن تقيم سلطة صارمة جدّا وقويّة ، أداتها هياكل عسكرية وإدارية ، ثمّ توطين المعمّرين لزرع بذرة التقدّم ، وهذا سيجعل الأهالي ينتفعون لذاتهم ويضمنون الثمرات من عملهم ، ومن شأن ذلك أن يزوّدهم تدريجيا بالاستعداد لقبول الحضارة الأجدى التي سيجدون فيها مكانة لهم في إطار يستطيعون التطوّر ضمنه ، وأن يخلقوا طموحات تدفعهم لمزيد من العمل ، وتوفّر لهم الفنون التي يضفونها على حياتهم : حضارة توفّر لهم اللغة السلسة التي تمكّنهم من التعبير عن أحاسيسهم وبالمقابل تجد فيهم تلك الحضارة احتياطيا بشريا لا يتوفر كثيرا عند الشعوب الهرمة ، كما تجد فيهم أيضا عمّالا ممتازين في الحرب كما في السلم ، لكن هل يريد البربر وهل يستطيعون كسر قوى التوحّش التي تستمرّ في سلوكهم بعناد خلف وبجانب المناطق التي تنغرس فيها الحضارة ؟ ، لا يكفي أن يعامَلوا باحترام انتظارا للفرص المناسبة للقذف بهم في المعركة ، إنّ الفتح الأدبي للبلاد كلّها يفرض أسلوبا خاصّا متميّزا عن الفتح المادّي ، فما أتعس سادة أفريقيا الشمالية الذين لا يدركون ذلك .

Stéphane *GSELL*

هـــــوامش وتعاليق :

HISTOIRE ANSIENNE DE L'AFRIQUE. Du Nord T. YI Les Royaumes Indi.génes , Vie Matérielle , Intellectuelle et Morale édition hachette Paris 1927 .).. P274-285

(*) هذا العنوان من وضعنا ، والموضوع فالأصل هو خلاصة (Conclusion) لقسم من كتاب اسطيفان اقزال الشهير : تاريخ أفريقيا الشمالية القديم في جزئه السادس ص ص 274 – 285 والبربر الذين يقصدهم المؤلّف هنا – دفعاً لكلّ التباس– هم كلّ سكّان أفريقيا الشمالية من الناطقين بالبربرية والمستعربين بدرجات متفاوتة ، وقد يسهل على بعض السطحيين تقسيم السكّان حسب اللسان غير أنّ الأنتروبولوجيا لا تكتفي بذلك بل تدرس السلوك والطباع والعادات والتقاليد وحتّى اللباس ... ، وهذه كلها عناصر هوياتية (Identitaires) يشترك في خطوطها العريضة كلّ

سكّان أفريقيا الشمالية من مستعربين ومحافظين (Berbérophones) على السواء .

(1) هذا الموجز عن حياة اسطيفان اقزال مقتطف من : CRAI, 1889, pp. 66-67 -

الأفريقيون أو الأفارقة عند اقزال وسائر المختصّين في التاريخ القديم هم أهل أفريقيا الشمالية أي البربر أو الأمازيغ ، وانقسامهم اليوم لغويا لا يعني البتّة انقساما عرقيا لأنّ العرق واحد يشمل المستعربين والمحافظين وهو على العموم العرق البربري ، حتّى لا يفهم من دفع به التنسّب الساذج - إلى التنكر لذاته - بأنّ هذه الأحكام لا تعنيه .

(2) هذا تناقض صارخ ، فكيف سمح اقزال لنفسه أن يسم شعوب الشمال الأفريقي بالخيانة ، وهاهو بنفسه يشهد لهم بوفاء نادر ، وإذا كانت وقائع تسليم يوغرطة مثلا هي التي بنى عليها حكمه فإن هذه الوقائع في حدّ ذاتها ينبغي أن تكون محلّ بحوث جديدة على ضوء الدراسات الحديثة ، لأن تاريخ المغرب القديم كتب من طرف واحد لا يخفي تحيُزه

(3) هذه النعوت التي يسردها اقزال في عزّ ازدهار الهيمنة الإمبراطورية الفرنسية والأوربية عامّة ، وفي حضيض تدهوُر الوضع الاجتماعي والثقافي لشعوب أفريقيا الشمالية ، يمكن أن نجدها لدى شعوب كثيرة عرفت نفس الأوضاع، وليست حكرا على البربري،بل هي ظواهر نجمت عن حالة الأمّية المفروضة طيلة أجيال على شعب فقد السيادة قرونا متلاحقة ، وهو وضع أفقده المبادرة الحضارية،وما السلبيات التي يستعرضها اقزال هنا إلاّ ردود أفعال ونتائج يمكن أن تظهر عند أيّ شعب فرض عليه ذات الوضْع المفروض على الشعب البربري طيلة التاريخ : حكْم أجنبي وإذا استعاد استقلاله تحكمه نخبة منه ولكنّها ذات ثقافة أجنبية أي أنّ الثقافة الأجنبية تحكمه على الدوام فكيف يمكن له أن يفلت من هذا الوضع وأن يتحرّر وأن يبدع... .

(4) ويتحمّس البعض لهذه الأفكار مستدلاّ بأنّ ثورة الجزائر التي دفعت الشعب إلى عتبة العصر الحديث سرعان ما أعادته الثورة المضادّة في عهد الاستقلال إلى مغارات الماضي ، وأصبح الماضي يثور على الحاضر بتحريك جماهير الدهماء للسير إلى حتفها بظلفها كما يقول المثل ، يدفعها لاوعيُها .

(5) هذا الحكم لا يزال صادقا جدّا ، فالكلّ في مجتمعنا لا يعرف ولا يمكن أن يعرف ولا يريد أن يعرف القيمة العلمية للجامعي ولكن يسأله ما المنصب الذي يؤهّلك علمك "الكبير" له ، ما هو مرتّبك ، أمّا القيمة العلمية والأدبية فأنّى لهم أن يدركوها .